دراسات فى الفن

نحو دنيا الروح

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

يقول علماء التربية وعلماء النفس فيما يقولون من الحق : إنه يمكن التخفيف من حدة الغريزة الجنسية عند المراهقين بصرفهم إلى الفنون الجميلة . وهم لهذا يوصون المربين بأن يعلموا المراهقين الموسيقى والتمثيل والرسم والأدب .. وقد استجاب لهم المربون فأنشأوا فى المدارس الثانوية وبخاصة جمعيات الفنون الجميلة إلى جانب فرق الألعاب الرياضية التى سبق أن أثبت دعاتها أن من يمارسها من المراهقين يبذل فيها من نشاطه البدنى ما يحتاج بعده إلى الراحة بعيداً عن التفكير فى الاستجابة لهتاف الغريزة الجنسية .

فهل أثبت دعاة الفنون الجميلة من علماء التربية وعلماء النفس دليلاً على أن من يمارسها من المراهقين يبذل فيها شيئاً من نشاطه يحتاج بعده إلى الراحة بعيداً عن التفكير فى الاستجابة لهتاف الغريزة الجنسية لتطمئن بهذا الدليل عقولنا . ولتؤمن بأن الذى يدعون إليه قائم على أساس من الحق يرتكز على صلة مؤكدة بين الفنون الجميلة والغريزة الجنسية، أو أنهم رأوا الفنانين أكثر الناس انصرافاً إلى نزعات البدن فخطر لهم أن يتصيدوا المراهقين بالفنون يشغلونهم بها عما تتلهف إليه أيدانهم الحارة الملتهبة . فهى إذن مؤامرة من الخداع والتضليل اتفق عليها علماء التربية وعلماء النفس ، وجازت على من وقع فى أيديهم من المراهقين أو جازت — فى القليل — على بعضهم ؟

ولكنى إذ أقول هذا أرجو علماء التربية وعلماء النفس أن يمضوا فى مؤامرتهم هذه إلى أبعد حد، وأن يأخذوا بها المراهقين وغير المراهقين من كل من تسوقه إليهم الحياة ليربوه . فليس أشرف من هذه المؤامرة شىء ، وسيجىء قريباً أو بعيداً ذلك اليوم الذى توفق فيه أساليب العلم إلى كشف ما بين الغريزة الجنسية والفنون الجميلة من صلة حقيقية مؤكدة. ولست أريد بهذا الادعاء بأن العلم غائب عن هذه الصلة ، ولكنى أريد أن أقول : إنه لا يزال يحوم حولها، ولما يجرؤ على غزوها لأنها ميدان جديد عليه ، ولأنه لما يستنبط الميزان والمقياس ، والأنبوبة والمخبر ، والأملاح والأحماض التى يستطيع أن يحول بها الغريزة الجنسية إلى الغريزة الفنية، والغريزة الفنية إلى الغريزة الجنسية ليصدق بعد هذا عقله الثقيل المتشكك أن هناك وحدة تجمع بين الاثنتين .

وإلى أن يصل العلم إلى استنباط هذه الأدوات التى لا يفهم شيئاً إلا بها يستطيع المتحررون من أغلاله وقيوده أن يضربوا فى السماء بحثاً عن هذه الصلة ، وأن يتركوه فى معمله يتخبط بين الشك والخور لعله مهتد يوماً إلى تركيب « حقنة » من الشعر ، أو « برشامة » من النغم ! فليبق العلم فى معمله ، وليدع العلماء المراهقين إلى الفنون الجميلة ، وليعللوا دعوتهم هذه بأن الفنون الجميلة تبعث فى النفس الخيال ، وتلهب فيها العاطفة ، أو فليقولوا على العكس من هذا إن الخيال والعاطفة هما اللذان يبعثان فى النفس الفنون الجميلة ، أو فليقولوا ما شاءوا من أمثال هذا القول المخلخل الذى لم يضغطه الإيمان ولم تتماسك به الثقة .

لندع العلماء إذن يترددون ما طاب لهم التردد ، ويتوجسون ما حلا لهم التوجس ، ولنمض نحن مع أولئك المتحررين من الأغلال والقيود ، ولنرهم كيف يدركون الصلة بين الغريزة الجنسية والفنون الجميلة .

وقد عودنا هؤلاء المتحررون المتطارون أن يلتووا على عقولنا قبل أن يهدونا إلى ما يعلمون من الحق ، كأنما يأبون إلا أن يعابثوا العقل وأن يذلوه قبل أن يقودوه إلى النور ويلهموه . ولكنهم

على أى حال أحب إلى النفس وأرحم من الأنابيب والأملاح ...
فلنحتمل معابثهم إذن ولنسألهم :

— كيف تجدون الصلة بين الغريزة الجنسية والفنون الجميلة ؟

ولكنهم يسألوننا : وكيف تجدون الصلة بين الشحم والنبوة؟

— وهل هذا سؤال بالله عليكم ؟ إننا لا نجد شيئاً .

— إن هناك أشياء . فلو أنكم عدتم إلى سير الأنبياء لوجدتموهم يكثرون من الصوم ، ويخففون من الطعام . ولو أنكم عدتم إلى سيرة النبي الأكل محمد لرأيتموه يصوم كلما اعتزم أمراً جللاً ، وكلما هم بغزوة أو حرب . وإذا اعتبرتم « غاندى » الهندوكى التقى الخارق العجب وليًّا من أولياء الله كما نعتبره نحن فإنكم لا بد معترفون بحرصه على الصوم كلما احتاج إلى التجلد والتعزز فى قيادة أنصاره ومقاومة خصومه . أفلا ترون فى هذا كله صلة بين الشحم والنبوة ؟ أو بين الشحم والسمو الروحى على الأقل ؟

— الآن رأينا ، وهى كما تبدو على هذا النحو صلة عكسية

— نعم . إنها صلة عكسية . فكلما غذى الإنسان بدنه شغله هذا عن غذاء روحه ، وكلما جوع بدنه سهلت عليه تغذية روحه

— إنكم إذاً تعدونه شهيداً ذلك الذى ينتحر جوعاً

— لا شهادة فى إتلاف ، وإنما الشهادة فى التقويم . فإذا استلزم التقويم الموت فإنه إذاً تخريب ما بين المتساكنين : البدن والروح . عودوا إلى ما كنا فيه ، وحدثونا عما يصحب انفجار الغريزة الجنسية عند المراهقين من شدة ميلهم إلى الإكثار من الطعام والإكثار من وجباته

— إنها أجسام يزيد نزوعها إلى النمو فهى تحتاج إلى ما يعين على بنائها وما يسعف نموها

— لا . فإن أجسام المراهقين لتنمو وتفرع ولو لم تستزد من قوتها ، فهذا التموسيل من الحياة يتدفق من غدد ظلت تجمعه وتخزنه ما عاشت وواصلت العمل

— إذن فماذا تقولون ؟

— الحياة ماضية فى سبيلها . وسبيلها هو الأحياء أنفسهم ، فهى تسلكهم ، وقد تنقلت فيهم من ماضيهم حتى انتهت إلى حاضرهم ، وهى منتقلة فيهم من حاضرهم إلى مستقبلهم . وهى فى سيرها هذا تعطى أولئك الأحياء ثمن ما سمحوا لها بالمرور فيهم وتأخذ منهم ثمن ما عمرتهم . ويقول ناس مؤمنون بالعدل : إن ما تأخذه الحياة من مثقال ذرة لا تأخذه إلا بعد أن تكون أعطته مثقال ذرة

— هذا حسن . ولكن ما قصة الأخذ والعطاء عند المراهقين؟

— عند المراهقة تبدأ الحياة فى الاشتداد بمطالبة المراهق بما أعطته . وهى إذ تطالبه تستمر تعطيه . وهو إذ يستشعر نفسه فى هذا الموقف الجديد يقبل على الحياة إقبالاً جديداً فيه عنف وفيه جشع . فهو يستطعم الحياة مادتها ومعناها بنهم العائل المكلف بالنفقة يتكالب على موطن رزق . وفى سن المراهقة تصارح النفس الحياة بحقيقتها وتكشف لها القناع عن وجهها . وكل نفس تستجمع خصائصها ومقوماتها مما سبق أن أعطته الحياة إياها من طريق الوراثة ، ومن طريق البيئة ، ومن طريق التربية ومن سائر تلك الطرق التى تنفذ منها الحياة إلى الأحياء . عندئذ ترى الحياة مراهقاً مقوس الأنف يمد لها كفيه ويقول : هات ؛ ومراهقاً آخر مسحور العينين يمد لها شفتيه ويقول : هات ؛ ومراهقين آخرين ما بين هذا وذاك يريدون مما يطلبه هذا ومما يطلبه ذاك . والحياة أمام هؤلاء جميعاً تعطى وتأخذ مثلما تعطى ، مثقال ذرة بمثقال ذرة . وهى كما تكمن فى هؤلاء الأحياء ، تلبد فى غيرهم من الأحياء المتجسدة ، والأحياء المتجردة ، وهى تعرض نفسها فى مظاهرها المختلفة أمام النفوس فلكل نفس منها ما تحب وما تشاء . فمن أخذ منها مادة لم يستطع أن يعطيها إلا مادة ، ومن أخذ منها معنى أعطاها المعنى ، ومن أخذ منهما معاً أعطاها منهما معاً . والمراهق قد تكوّن مما أخذه من الحياة وهو ليس مادة فقط لأن الناس ليسوا مادة فقط فهم مادة وشىء آخر تقول عنه نحن إنه روح ويقول عنه ناس آخرون إنه نفس ، ونحن وهم نقول إنه شىء متجرد عن المادة التى تتزيا بها الكهرباء فى أزياء مختلفة . فلا بد إذن أن يأخذ المراهق « كفيه » من مادة الحياة ومعناها ليعطيها مادة ومعنى ، وأيهما أكثر الأخذ أكثر العطاء . ومن الناس من يقنعون فى هذه السوق بالضرورى اللازم لإقامة إحدى ناحيتيهم ويلحون فى طلب مكملات الناحية الأخرى؛ ومنهم من يتوسطون فيطلبون من هذه مقدار ما يطلبون من تلك، وهذه الأرض تستطيع أن تمد الناس بحاجتهم من المادة وزيادة ؛ وسماء المعانى تستطيع أن تهب الناس حاجتهم من المعانى وزيادة ؛ والناس فى التنازع على المادة يتخاصمون ويتعادون ، بينما هم حين يتناهبون المعانى يزدادون تقارباً وتفاهماً وتحبباً وتعاطفاً وتوحداً . فكلما اهتمت البشرية بالناحية المادية أمعنت فى التبعثر والتفوق والتشتت ، وكلما توغلت فى الناحية الروحية أمعنت فى التماسك

والانسجام . ونحن إذا رجعنا إلى تواريخ الأفكار والدعوات الروحية رأينا أخلصها روحاً أكثرها تعاوناً بين أنصارها ، ولم نر الاختلاف يدب إلى هؤلاء الأنصار إلا حينما تنزلق إلى فكرتهم دواع مادية فتفرقها . فالواجب إذن على البشرية إذا كانت تريد أن تستخدم عقلها فى الخير أن تتنع من المادة بما يقوم الحياة البدنية فقط لا أكثر ولا أقل ، وأن تنقذف بالوافر الباقى من نشاطها إلى حيث يمكنها أن تتوحد . وهذا هو مادعا الأنبياء إليه ، وحاشا أن يكونوا مجانين ، وإنما هم أنبياء وقد أرشدوا البشرية إلى طريق الخير ومضوا ، فاتبعهم أولياء أقنعت الدعوة إحساسهم وعقلهم ، وانساق فى طريقهم فنانون يتمشقون فى هذا الكون جماله ، ويطلبون كماله وكمال أنفسهم معه .

— ولكن البشرية إذا اتبعتكم فى هذا عادت كما كان يعيش أهل الكهوف ، أو كما يعيش أهل الغابات

— وهل تحسبون الحال اختلفت ؟ الكهوف باقية ولكنها اليوم عمارات من ناطحات السحاب . وفى الغابات يصيد الناس الحيوان نيأ كلوه ، وفى هذه العمارات يصيد الناس بعضهم بعضاً ويأكل بعضهم بعضاً ، وقد عافت البشرية أن تأكل لحما فأكلت فى العمارات ضميرها وشرفها وروحها . إن أهل الكهوف كانوا أقرب منا إلى السماء ، وإن أهل الغابات لا يزالون أقرب من أهل العمارات إليها

— ولكن هذا العلم الذي علمناه ، وهذا العقل الذى نحيا فيتا ... أنلقيهما فى الفضاء لنعود إلى حياة العراء ؟

— لم يقل أحد هذا . وإنما نستطيع أن نجند علومنا وعقولنا لتنعيم أرواحنا لا للترفيه عن أجسادنا ، وسنرى عندئذ أن أكثر ما نعلمه لغو لا يغذى الروح ، وسنرى عقولنا قد اسودت من كثرة ما كذبت علينا وأضلتنا طريقنا

— وعندئذ ماذا نصنع ؟

— عندئذ ينتعش إحساسنا ، عندئذ يبدو لنا الكون فى آلاف الصور وكلها محببة . وقد يعيننا صوم الأنبياء على تذوق الحب واستساغته ، وقد يصرفنا هذا العشق الشفاف عن تهافت الأبدان وتجاذبها ...

— وبعد ذلك تنتهك قوى البشرية فتتخاذل وتهزل ويقل نسلها وتموت

— من أين جئتم بهذا ؟ سيأكل الناس من الأرض مايعيشون به ، والطبيعة لا تريد منهم أكثر من أن تعيش أبدانهم . فإذا أخذوا منها أكثر ما يلزم لها خالفوا قانونها وظلموها وظلموا أنفسهم ، وسينجب الناس بقدر ما يحفظون نوعهم وبقدر مايسمح للحياة المادية أن تسلك أبدانهم إلى مرحلتها الجديدة . وليست الحياة تريد أكثر من هذا . والحياة بعد ذلك تطلب الإعجاب الروحى الذى يؤديه الإحساس . الحياة تطلب الفن طلباً طبيعياً واجب الأداء ؛ فأين هو فى هذه الحضارة !

— إن الحياة هى التى حبست غرائسها الروحية عن البشر فى هذا العصر !

— بل هن معروضات أمام الأرواح النابهة ، ولكن ما أقل هذه الأرواح النابهة الآن ؟ لقد استغلق الناس على أنفسهم ، ختمهم العلم والعقل بخاتم أصفر من الذهب .

— ولكن ها هو ذا العلم يدعو المراهقين إلى الفنون الجميلة ليصرفهم عن شهوات أبدانهم .

— أو لا يعلك العلم إلا هذه الدعوة ؟ إن الفنون الجميلة لها الذين يحبونها لا ينصرفون عنها . أما الذين يزدرونها فلا يقبلون عليها إقبالهم على نوع من العبث .

— فما الذى تطلبونه من العلم إذن ؟ إنه لا يستطيع غير هذا .

— نريد أن يزف المراهقين وغيرهم إلى العرائس من المعانى والفكر ، فإذا عشقوها عطروا لها أرواحهم ؛ فإذا ساكنوها أعقبوا فيها فنوناً تسلكها الحياة الماضية إلى الأمام فى سبيلها .

— وكيف يحدث هذا ؟

— إن هذه العرائس تياهة مدللة لا تلين إلا أمام حس يرهف نفسه لها ، فهل يستطيع العلم أن يرهف إحساس الناس ؟

— لا . ولذلك يعمد فى هذا إلى الفن مستعيناً به .

— ولكن استعراض الفن لا يخلق فناً ، وإنما يخلق الفن الإحساس بالحياة نفسها ، وما دمنا نتزع إلى تحويل إنتاج البشرية بقدر ما نستطيع من الإنتاج البدنى إلى الإنتاج الروحى فلا بد أن نعنى بخلق الفنون وإنتاجها لا دراستها واستعراضها ، وهذه العناية هى التى تنتهى مع الدأب إلى دنيا الروح

— وهل يمكن أن تقيم دنيا من الروح ؟

— نعم كما قامت دنيا من كهرباء موجبة وسالبة !

عزيز أحمد فهمى